الحوار القرآني؛ أبعاده ومقاصده التّداولية، سورة"طه"-أنموذجا.

محمد زيان

جامعة محمد لمين دباغين- سطيف2.

zianeboumerdes5@gmail.com

تاريخ الاستلام: 13-02-2018 ؛ تاريخ القبول: 23-05-2018

الملخص:

القرآن الكريم كتاب يدعو إلى الحوار، فهو خطاب في شكله حوار في مضمونه، يهدف إلى نقل الإنسان من عالم الواقع إلى عالم المثال. كما أن الحوار يحقّق الغاية التي من أجلها خلق الله الناس شعوبا وقبائل ألا وهي التّعارف .

والتداولية كمنهج حديث، يُعتمد في مقاربة النصوص الإبداعية، لدراسة المقاصد والأهداف، التي ترمي إليها، انطلاقا من قصد المبدع إلى التأثير في المتلقي، ومن ثم تغيير حاله ووجهة نظره وتفكيره. فالتداولية تنقل اللغة من مجالات الأقوال إلى ميادين الأفعال، وتدرس العلاقة الوثيقة بين اللغة ومستعمليها. لذلك حاولنا في مقالنا هذا استثمار بعض المبادئ الهامة لها في مقاربة نموذج حواري في القرآن الكريم، تمثل في حوار الله تعالى مع نبيه موسى عليه السلام، عندما اختاره رسولا إلى فرعون، ليدعوه إلى الإيمان بالله، ويكفه عن الطغيان، وعن ظلمه بني إسرائيل.

ومن بين المفاهيم التي اعتمدناها في الدراسة والتحليل؛ مبدأ القصدية، ومتضمنات القول، وأفعال الكلام. ووجدنا هذه المفاهيم والآليات تتناسب مع الغايات والمقاصد التي يرمي إليها الحوار قيد المقاربة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الحوار، الخطاب، التداولية، موسى عليه السلام.

Abstract :

The subject of this paper is studying the main characteristics of an important part of the Koranic style, which is conversation between God and his prophets.

My focus is on applying a pragmatic method and its principles to the analysis of a conversation in some verses related to a prophet Moses, when sent to Pharaoh to talk to him kindly for his interests and those of Israeli people.

I aimed at revealing the main specifications of that conversation in terms of utterance, elocutions, perlocutions…, and how god advised his prophet to behave before hisadressee to convince him, and how a Koranic discours is mainly a specific style of speech.

Key words : Koran, discours, pragmatic, conversation, Moses.

Résumé :

L'objet de la présente étude est de révéler les caractéristiques

Principales du discours coranique, notamment la conversation entre Dieu et ses saints prophètes.

L'études est axée sur l'analyse pragmatique de quelques versets relatifs au prophète Moisis, quand il a été appelé à s'adresser à Pharaon, lui conseillant de se ressaisir pour ses intérêts et ceux des Israelites.

L'objectif de cette analyse est de mettre l'accent sur les spécificités de la conversation tenue entre Dieu et son prophète, ses énonciations, ses élocutions et pérlocutions …, et comment Dieu a conseillé à son prophète de parler à son interlocuteur dans le but de le convaincre.

Mots clé : Coran, discours, pragmatique, conversation, Moisis.

تمهـــــــيد:

الحوار مطلب حياتي، وضرورة حضارية، ووسيلة للتقارب والتعارف بين الأمم والشعوب، وتبادل المنافع في شتى مجالات الحياة، وتحقيق الأمن والسلام في العالم أجمع، تعيش البشرية في كنفه في سعادة ورخاء.

والقرآن الكريم يدعو إلى الحوار، قال الله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(الحجرات:13). فالغاية من خلق الله للبشر هي التعارف، ولن يكون التعارف إلا بالحوار. لأن التعارف هو أساس التعاون وتبادل المنافع بين الناس.

وبالنظر، الحوار هو السبيل إلى الإبداع والتغيير، فقد رأينا أن ندرس نماذج من السور القرآنية التي تدعو إلى الحوار من منظور تداولي، لأنه يتلاءم مع مقومات الحوار

والمقاصد التي يهدف إليها. واخترنا عينة من الحوارات القرآنية كنموذج تطبيقي، نجسد من خلاله المقومات التداولية للحوار، والمتمثلة أساسا في المشاركة والمقابلة والتواجه، والتي تلتزم فيها أطراف التحاور بقواعد الحوار لتجسيد مبدأ التعاون، والتأدب والكياسة، والقصدية، والصدق، من أجل تحقيق غايات نبيلة بكيفية ناجحة وفعّالة.

وقبل الشروع في الدراسة التطبيقية للمقاربة التداولية للحوار المختار من النص القرآني، نبدأ بتناول مفهوم الحوار، وخصائصه في القرآن الكريم، ثم الحوار القرآني من المنظور التداولي. فما هو مفهوم الحوار من حيث اللغة والاصطلاح؟.

-الحوار بين المفهوم اللغوي والمفهوم الاصطلاحي: الحوار من أكثر المصطلحات تداولا فيما يخص الأخذ والرد في الكلام بين طرفين. وتتفرع عنه مصطلحات مشابهة له هي الجدل، والمراء، والمناظرة، و المحاجة، والتفاوض، والمناقشة، والحديث. إلا أن منحى الحوار يختلف عن هذه المصطلحات من حيث قبول أحد الطرفين فيه التراجع أو المراجعة لكلامه لفائدة الطرف الآخر، وقد يتنازل فيه عن بعض شروطه ورؤاه (1).

ورد في لسان العرب أن مادة(ح، و، ر) تتصل بمعنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء. حار إلى الشيء وعنه رجع إليه وعنه. والحور النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجع من حال إلى حال. والتحاور؛ التجاوب. تقول: كلّمته فما أحار إليّ جوابا.(2). و قد ورد في تهذيب اللغة للأزهري أن الحور معناه؛ الرجوع عن الشيء إلى غيره، وكل شيء يتغير من حال إلى حال. تقول: حار يحور محاورة؛ مراجعة الكلام في المخاطبة. تقول: حاورته في المنطق، وأحرت له جوابا، وما أحار بكلمة... ويقال: إنّ الباطل لفي حور، أي؛ في رجوع ونقص. ورجل حائر بائر؛ إذا رجع ونقص(3). وهكذا نجد أن معنى الحوار في المفهوم اللغوي يدور في إطار الرجوع والتجاوب والاستنطاق والتغير من حال إلى حال .

أما الحوار في المفهوم الاصطلاحي، فهو مراجعة الكلام بين طرفين، وقد يتحول إلى جدال يستعمل فيه الطرفان القوة في المحاجة باللجوء إلى استخدام حجج وبراهين لإقناع الآخر برأيه أو بتغيير وجهة نظره (4). «فالحوار نوع من الحديث بين شخصين يتم فيه تبادل الكلام بينهما بطريقة ما، لا يستأثر به أحدهما دون الآخر. ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والتعصب»(5).

ويشترط في الحوار طرفان؛ متكلم ومخاطَب، يتبادلان الدور، فيصير المخاطَب متكلِّما والمتكلِّم مخاطَبا وهكذا دواليك. فيتشكل الخطاب المشترك، وتتشكل المشاركة في الخطاب والتي هي أساس من أسس الحوار التواصلي(6). ويجري في عملية الحوار تبادل الأفكار والآراء وتنجم عنه مواقف متشابهة أو متباينة، وقد يتفق الطرفان فيه كما قد يختلفان، « فالأصل في الحوار الاختلاف»(7). والحوار ينقل المعلومة بصورة حيوية إلى الطرف الآخر بعيدا عن تفاصيل السرد وسآمته، فتستفز المحاورة عناية السامع- وحتى القارئ- لمتابعة ما يطرح من موضوعات خلال المحاورة(8).

وقد يكون الحوار تفاعلا لفظيا أو غير لفظي بين اثنين أو أكثر بهدف التواصل والتكامل في الأفكار. وهو وسيلة ناجعة لعرض الأدلة، وصولاً إلى الصواب وتجليةً للحقيقة، فيحصل الفهم والإفهام، والاقتناع والإقناع. هذا عن مفهوم الحوار الاصطلاحي على وجه العموم، فما هي خصائصه المميزة في القرآن الكريم؟.

***خصائص الحوار في القرآن الكريم:** وردت كلمة الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع؛ اثنين منها؛ في سورة الكهف، في قوله تعالى:﴿ **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾(الكهف:34)، وقال أيضا:﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾(الكهف:37)، وواحدة في سورة المجادلة في قوله تعالى:﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾(المجادلة:01). فحديث المرأة عن زوجها في البداية كان جدالا وخصومة، ولمّا هدّأ الرسول صلى الله عليه وسلم من غضبها تحول الجدال إلى حوار، لأن المرأة في البداية شعرت بالظلم من زوجها فلم تتقبله وأرادت أن تدافع عن نفسها بغضب، وبعد طمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم لها، هدأت واطمأنّت، فتحول جدالها إلى حوار.

وقد ورد الحوار في القرآن الكريم بمفاهيم أخرى؛ كالجدال، والمحاجة، والمناظرة. وتنوع بين الحوار مع الذات والحوار مع الغير. وهو ما يسمى بالحوار الداخلي(مع الذات)، والحوار الخارجي(مع الغير)، ولكل أهميته وفوائده.

***الحوار مع الذات وأهميته:** إن تفعيل هذا النوع من الحوار يساعد على النقد الذاتي، ويفتح آفاقا واسعة من الحوار مع الآخرين، فالحوار مع أنفسنا يعلمنا كيف نحترم

الغير، فما لا نرضاه لأنفسنا لا نرضاه للغير(9). والانتصار على الذات يجعلنا نقترب من الآخر وندنو منه، فهذا الحوار يحررنا من سجن الذات ومن قيودها ونزعاتها السلبية. لأن قبول الاختلاف، قبول بالآخر، وهذا لا يعني إقصاء الذات نهائيا بل يجب إبرازها بما تتميز به عن الآخر تميزا إيجابيا، أي؛« إبرازها في مقابل التنوع الذي تكون عليه»(10). لأن الإنسان اجتماعي بطبعه ومعرفته لذاته طريق إلى معرفته لغيره.

وحتى نعرف الآخر حق المعرفة يجب أن نلج إلى ذواتنا ونعمل على تغييرها، ويتحدد هذا العمل في غرس الوعي الخلافي، وهو من الغايات التي يجب أن نعيها في هذا الوجود، لكي يقوم كل منا بدوره المنوط به وبالمسؤولية الملقاة على عاتقه، وفق المقولة الرائعة: «كل منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فليحم كل منكم ثغره»(11).

إن الذات الإيجابية هي التي تعطي العلاقة مع الآخر فاعلية تمكنها من إدارة الحوار من موقع القوة المتحلية بالعدل، والتسامح، والسلم. القوة التي تكون زادا، ونموذجا يحتذى به، وبفضل هذه القوة، تتفتح هذه الذات على الحوار مع الغير، حتى وإن كان هذا الغير مخالفا لها في العقيدة. قال الله تعالى:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(آل عمران:64). فيجب ألّا ينعزل المحاور أو ينغلق على ذاته، بل يجب أن يشارك في صنع هذا العالم، و يغير فيه بالموجب لا بالسالب، وبهذا الوعي يمكن أن يكون حوارا تواصليا وتداوليا مع الآخر بامتياز، وأن يكون فاعلا لا مفعولا .

***الحوار مع الغير(الآخر)، وأهميته:** قال الرسول (ص):لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. فالأساس في التعامل مع الآخر السعي إلى نفعه، فأحب الناس إلى الله أنفعهم لعباد الله .ويقول المثل الإفريقي: "بينما تتشاجر الغابة بأغصانها تكون متعانقة بجذورها". فالاختلاف وإن كان في الفروع فإنه لا يمكن أن يحدث في الأصول، ولذلك ينبغي أن يكون الحوار في المتفق عليه، الذي يجمع لا الذي يفرق، ويكون في الأصل لا في الفرع. وقيل عن سقراط: إنه لما كان يسأل: من أين أنت؟ فإنه ما كان يجيب: من أثينا. وإنما كانت إجابته: مواطن من العالم !!. فالكل في هذا العالم هم عباد الله. ويحكي المثل التّيبتيّ، فيقول: خلت من بعيد أني أرى حيوانا، لكنه حين اقترب مني أدركت أنه إنسان، على أنه لما

دنا مني أكثر فأكثر تبين لي أنه أخي(12). وهكذا فإن الآخر إذا لم يكن أخاك في الدم والدين والوطن، فهو أخ لك في الإنسانية.

ويختم جاك لوفرا كتابه "الحوار" بحكمتين: الأولى تنص على: أن لا تنازع على ما يفرق بيننا، والثانية تقول: تفكر مثلي، إذا أنت أخي.إذا كنت لا تفكر مثلي، فأنت أخي مرتين، يثري بعضنا بعضا، بفضل الثروة التي أحملها والثروة التي تحملها، ونصبح أخوين بشكل مضاعف(13). فالحوار والتعارف ينبني على الاختلاف والتنوع، وهذا التنوع هو الذي يعطي العلاقة بين المتحاورين القوة والديمومة والاستمرار. فالاختلاف يولد التجاذب، والتشابه يولد التنافر كما تقول القاعدة الفيزيائية.

إن مثل هذه الحكم والأقوال من شأنها أن تدفع الإنسان إلى إقامة حوار تشاركي وتفاعلي مع الآخر، ينتج عنه الإبداع والاختراع للجديد الذي يخدم الأفراد والأمم والشعوب، ويحقق للإنسانية الازدهار والأمن والطمأنينة والسلام. والإنسان في هذا العالم محكوم عليه أن يتعارف مع بني جنسه، ولن يكون هذا التعارف إلا بالتحاور والاعتراف بالآخر والتعايش معه حتى وإن خالفه-هذا الآخر- في الرأي والمعتقد. وكل ذلك لأجل تحقيق الغاية من خلق الله سبحانه للأمم والشعوب والقبائل.

لقد حفل القرآن الكريم بالحوار ودعا إليه، وقد كان حواره حوارا ذا أبعاد ومقاصد تداولية، تعود على الفرد والمجتمع والأمة بالخير العميم. فما الخصائص التداولية للحوار القرآني؟.

***خصائص الحوار القرآني من المنظور التداولي:** كثر الحوار وتنوع في القرآن الكريم، فمن حوار بين الله ومخلوقاته ومن حوار بين المخلوقات فيما بينهم، ومن خلال هذا الحوار يستطيع القارئ أن يسبر أغوار نفسه وأنفس الآخرين. ومن خصائص هذا الحوار، الإقناع والتأثير بقصد الإصلاح والتغيير كما يتميز الحوار القرآني بالوظيفة التذكيرية المتعلقة بالخوف من الله والإيمان بالغيب والاستعداد ليوم الحساب والجزاء، وهذه الخاصية التذكيرية سقطت من قاموس التداولية الغربية فلم تشر إلى هذا المقصد القرآني.

تميز القرآن الكريم وتفرّد عن الكلام البشري في حواره من عدة أوجه نوردها فيما يلي:

- التنوع والشمول في معالجة القضايا الحيواتية للناس، فلم يقتصر الحوار على الجانب الديني العقدي، بل تجاوزه إلى معالجة الحياة الاجتماعية والاقتصادية السياسية للناس. « فهو حوار شامل يتناول العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات»(14). كذلك التداولية، فهي تهتم بالمعالجة الشمولية للحوارات وتدرس كل ما له صلة بها من أشخاص وأقوال وأفعال وسياقات داخلية وخارجية، أي؛ الظروف والملابسات التي تصحب عملية الحوار والتفاعل التواصلي. كما يستوعب الحوار القرآني النفس البشرية بكل كيانها ومداركها ومراكز التأثير فيها.

- التركيز على الفكرة لا على الأشخاص؛ القرآن الكريم يسوق الحوادث والقصص من أجل الاعتبار والتذكير والوعظ والإرشاد، ولا يهمه من قام بالفعل أو كان سببا في الحادثة أثناء عرض القصة، بل يهمه الاستفادة من المقصد والمغزى ومن النتيجة التي آل إليها هذا القصص أو هذا الحوار. فهو يصرف النظر عن أطراف الحوار، ويهتم بالمقاصد والأبعاد. أما التداولية فتهتم بالسامع كما تهتم بالمتكلم، إذ يجب أن تراعى فيها أحوال المستمع المقامية والسياقية لأن هذا يفيد في استمرار الحوار البشري. أما الحوار القرآني فهو حوار خاص يركز على الخطاب أو الرسالة ولا يريد أن يجامل أو يحابي ولا أن يصنع بطلا ولا شخصية محورية فليس هذا من مقاصده وأهدافه.

- الحوار القرآني ينصف جميع البشر مهما كانت عقيدتهم، ومهما كانت ديانتهم، فهو يدعو إلى الجمع لا إلى الفرقة وإلى التحاور لا إلى التخاصم أو الصدام، وإلى التجاور لا إلى التباعد. قال الله تعالى:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(آل عمران:64).

– الحوار القرآني يمتاز بالرفق واللين في الخطاب: فهو حوار غير إقصائي ولا ولا تحريضي ولا استفزازي، يتسم بكل الصفات التي من شأنها استمالة السامع وإقناعه بما يحمل من مقاصد وأفكار، ونجد هذه الصفة في الفكر التداولي التواصلي الذي يتطلب سلوكاً متأدباً ومتخلقاً من طرفي الحوار، لكي يكون الكلام مقنعاً ومؤثراً، ومن ثم يكون فاعلاً ومغيراً لسلوك الفرد وواقعه. فالحوار القرآني يراعي البعد الأخلاقي واللين في الخطاب، نجد هذا في قوله تعالى:﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾(طه:44). وفي هذا القول تربية لعباد الله ونصح لهم عند مخاطبتهم لمن لهم مكانة في المجتمع، وإن

كان الذي يجب أن يتأدب مع خالقه هو المخلوق، بأن يلتزم بكل ما أمر به الله ونهى عنه، فإذا كان التلميذ يتأدب مع معلمه، فماذا عن العبد أمام خالقه؟.

– قد يجيب الحوار في القرآن الكريم عن الأسئلة بطريق الفعل، إذ يتجاوز الإجابة القَولية إلى الإجابة الفعلية، فيكون ذلك الفعل بمنزلة الجواب مثل قوله تعالى لموسى عليه السلام:﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيفَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(الأعراف:143).فقد جعل الله الجبل دكا، ولم يبق في مكانه على حاله، وأغمي على موسى ، فلم ير الله عز وجل.

– يتميز الحوار القرآني بوحدة الموضوع ووحدة المقصد والهدف؛ فكل الحوارات التي وردت فيه يجمعها موضوع واحد هو ترسيخ مفهوم العقيدة في النفوس وتقريره في العقول مع ما يترتب عن ذلك من عبادات ومعاملات(15). وهذه الميزة ينفرد بها القرآن الكريم دون غيره من كلام البشر، فحواره يهدف إلى الدعوة إلى التوحيد، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة.

– ومن خصائص الحوار القرآني أيضا؛ التكرار، ففي كل مرة يتم التركيز على جانب من جوانب المعنى المناسب للمقام المناسب والحال المناسبة، « ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول » (16). وفي الإعادة إفادة كما يقال.

كانت هذه جملة من خصائص الحوار القرآني من منظور تداولي، والتي تجعله حوارا متميزا عن غيره من الحوارات البشرية من حيث الشكل والمضمون، فهو حوار هادف ذو مقاصد دنيوية وأخروية تسمو بالبشر وترقى بهم إلى صف الملائكة. وهو حوار تداولي بامتياز، بل هو حوار ما فوق تداولي لأنه يريد أن ينقل الإنسان من مستوى الواقع والحال إلى مستوى النموذج والمثال.

بعد أن تطرقنا إلى الحوار بمفهومه اللغوي والاصطلاحي وأنواعه من حوار مع الذات (الأنا) ومع الآخر (الهو)، وعرفنا خصائص الحوار القرآني، ومدى تطابقه مع المفاهيم التداولية التي تخص حوارات البشر، نحاول تطبيق هذه المفاهيم على نموذج من الحوار القرآني متمثل في حوار الله سبحانه وتعالى مع نبيه موسى عليه السلام، نسعى من خلاله إلى استنباط المقاصد التداولية التي يهدف إليها.

***حوار الله مع نبيه موسى عليه السلام:** ورد هذا الحوار في سورة "طه"، التي نزلت في كفار قريش الذين قالوا، بأن الرسول (ص)، سيشقى بنزول القرآن عليه، ومن هؤلاء، أبو جهل والنّظر بن الحارث(80). وفي سياق السورة وردت قصة موسى عليه السلام، لتطمين قلب الرسول (ص) مما يلاقيه من كفار قريش. ولنأخذ في الحوار الذي جرى بين الخالق عز وجل وكليمه موسى عليه السلام:

قال الله تعالى:﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آَيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36)**﴾(طه:**11 –36**). تمثل هذه الآيات أطول حوار دار بين الله سبحانه مع أنبيائه، ولذلك قال تعالى في آية أخرى:﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾.(النساء: 164).

ارتأينا في تحليلنا هذه الآيات أن نقتصر على الأفعال الكلامية الواردة فيها تجنبا للإطالة، لأن الآيات عديدة، لذلك نركز على الحوار في بدايته، ونحاول أن نستنتج الأبعاد والمقاصد التداولية التي وردت في ثناياه.

***مراعاة قدسية المكان:** قال الله تعالى:"﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)**﴾ (طه:**11-12**). بني النداء للمجهول، "نودي: يا موسى"، زيادة في التشويق إلى استطلاع القصة، وتحفيز السامع إلى معرفته. ثم تأتي المفاجأة، فالمنادي هو الله سبحانه وتعالى. فتتمكن هذه المفاجأة من نفس موسى كمال

التّمكّن. فماذا حمل النداء؟ حمل له كلاما غير معتاد، يُعلِمُه الله سبحانه فيه بأن له عناية خاصة. ففِعلُ الكلام المتمثل في النداء، كان الغرض منه الإعلام، ولفت الانتباه لما سيُخبَر به موسى من الله جل شأنه. وقوله تعالى:﴿**إنني أنا ربك**﴾؛ فضمير المتكلم إشارة إلى الذات الإلهية، الغرض منه، تسكين روع موسى عليه السلام، لأن مخاطِبه لا يُرى، فكان هذا الخبر الأوّلي، الذي يكشف عن المنادي، بمثابة المهدِّئ، والمطمئن، والمرفق بموسى عليه السلام. وقد تأكد هذا الخبر، بمؤكِّدات هي؛"إنّ"، وضمير الشأن "أنا"، و"ربّ" المضاف إلى "كاف الخطاب". والقصد منه، دفع الشك عن موسى(81). وتشجيعه على تحمل الرسالة.

يرد فعل كلامي آخر بعد النّداء، ويتمثل في الأمر على وجه الإلزام، ويطلب من موسى خلع نعليه"**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**"؛ وفي هذا إشارة إلى أن المكان الذي هو فيه، قد حلّه التقديس، وقد استمد قدسيته من كلام الله تعالى فيه، ونداؤه لموسى(82). لذا يجب على موسى أن يعظّم ذلك المكان. وهو "**الوادي المقدس طُوَى**".

وقوله تعالى:﴿**وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى**﴾(طه:12-13). يصرح الله- في هتين الآيتين- لموسى بأنه اختاره، واصطفاه. وعبَّر عن المسند بالفعل الماضي الدّال على تقوية الحكم. والاختيار هو طلب ما هو خير وأفضل، ومادام كذلك، يوجه الله أمرا آخر لموسى، يطلب منه سماع ما يوحى إليه، والأمر هذا هو على وجه الإلزام. وتصنّف هذه الأفعال الكلامية ضمن صنف المؤكدات(83)أو الحكميّات. لأنها تطلب التنفيذ للمطلوب."**ولما يوحى**" أي؛ للوحي. وقول الله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾(طه:14). يعلن ويصرح المولى عز وجل لموسى بأنه الله الواحد الأحد. وهذا الإعلان والتصريح مؤكد بأداة التوكيد، والضمير العائد على لفظ الجلالة، وأسلوب القصر الذي ينفي أن يوجد لله شريك في ملكه. فيوجه أفعالا إلزامية لموسى على سبيل الأمر، تضمنت أمرا حقيقيا، يدعوه في الأولى إلى عبادة الله الواحد، وفي الثانية إلى إقام الصلاة. وفي هذه الآية أيضا، تعليم لنا أدَبِيّات التّعارف بين المتلاقين؛ وهو أن يعرفوا أسماءهم(84)، ويدخل هذا الأدب–كذلك- في الحوار بين المتحاورين.

***معجزة العصا:** قال الله تعالى:﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**﴾(طه:17). أراد الله سبحانه، أن يُرِي موسى كيفية الاستدلال على من أرسل إليهم بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب العصا حية. والغرض تثبيت قلب موسى. فقد وردت الآية، بأسلوب الاستفهام،

والغرض من الاستفهام ، بثّ اليقين في نفس موسى وهو ممسك بعصاه، حتى إذا انقلبت حية لم يشُكَّ في أنها عصاه. فالغرض هو بيان حقيقة العصا. وفي هذا البيان زيادة اطمئنان قلب موسى بأنه في مقام اختيار واصطفاء. وأن الكلام الذي يسمعه هو كلام الله دون واسطة(85).

وكانت الإشارة إلى العصا بالظرف"ب**يمينك**" الذي وقع حالا من اسم الإشارة "**تلك**" بمعنى؛ وما تلك حال كونها بيمينك؟ والقصد من هذا السؤال هو إيماءٌ إلى غرابة شأن العصا. ولذلك أجاب موسى عنها جريا على الظاهر، وببيان منافعها المألوفة له. ولكن السؤال عن الواضحات لا يُعقل؟ إلا والسائل يريد أمرا آخر غير ظاهر(86). فالسؤال عن شيء والمراد والقصد شيء آخر، وهذا من صميم الأغراض التداولية. فتوضيح الواضحات من المعضلات، وتوضيح الواضحات من الفاضحات أيضا .

أجاب موسى عن السؤال، بشيء من الإطناب، لأن المقام مقام تشريف وتقديس، وهو في حضرة الذات الإلهية(87)، كان عليه أن يغتنم الفرصة بإطالة الحديث والإطناب في جوانبه، كي لا تنقضي تلك المتعة وهو في جنب الله سبحانه، وبين يديه.

وقوله تعالى:"**قال ألقها**"، وهذا الأمر هو الذي سيزيل الإبهام عن السؤال عن العصا. فقد كان السؤال سببا وذريعة لما سيأتي، فهذه القرنية هي التي تدل على أن الاستفهام لم يكن استفهاما حقيقيا، بل القصد الحقيقي منه، هو تنبيه موسى عليه السلام لأمر العصا وأهميتها. وأن يعرف أن العصا تطبّعت بالانقلاب حيّة، فيتذكر ذلك عند مناظرة سحرة فرعون، ولا يحتاج حينئذ إلى وحي(88). وكانت هذه المعجزة الأولى.

***معجزة اليد البيضاء من غير سوء:** أما المعجزة الثانية، ففي قوله تعالى: ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى**﴾(طه:22). هذه معجزة ثانية ؛الغرض منها والقصد واحد مع إلقاء العصا؛ إذ طلب الله من موسى أن يضع يده تحت إبطه، وهي اليد التي كانت ممسكة بالعصا حتى تمس بشرة جنبه، ويخرجها بيضاء من غير مرض أو عاهة(89)، وهي آية أخرى لفرعون. وبهاتين المعجزتين يكتشف موسى، ويعلم قدرة الله على خلقه. ويستقبل التكليف بقوة وعزيمة.

***تكليف الله موسى لمواجهة فرعون:** قال الله تعالى: ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾(طه:24). بعد أن أيد الله موسى بالعصا واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء. وهما آيتان معجزتان منه عز وجلّ. أمر موسى الأمر العظيم الذي يدخل الرّوع في نفسه، وهو مواجهة فرعون، ومكاشفته بفساد حاله. فالآية وردت بأسلوب الأمر الذي يدل على التكليف والتنفيذ على وجه الإلزام والتأكيد. وجملة "**إنه طغى**" تعليل للأمر بالذهاب إلى فرعون، والغاية من هذا الأمر، هو التغيير بعد الإبلاغ، تغيير حال فرعون، وتغيير ما هو عليه من ظلم، ومن عبادة غير الله(90). فللظّلم عواقب وخيمة، وللظلم حدود ونهاية، والله – وحده – يتكفل بالظالمين، مثلما تكفل بفرعون.

***طلب موسى توفيق الله وعونه:** لم يتراجع موسى عن الأمر، ولم يتردد، بل تلقاه وسأل الله الإعانة عليه:﴿**قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾(طه:25-28). فطلب موسى من الله، رباطة جأشه، وخلق أسباب تعينه على تبليغ الرسالة، وإعطائه وضاحة القول، للإسراع بالحجة في الإقناع . فكان الإلحاح من موسى في دعاء الله أن ييسر له مهمته(91). وحتى يحلل عقدة من لسانه، يطلب موسى من الله أن يجعل له وزيرا من أهله: قال:﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي**﴾(طه:29-30). يطلب موسى من الله بصيغة الأمر تأييدَه بهارون أخيه؛ لأنه أقوى في المناصحة، وكان هارون معروفا بأصالة الرأي، وفصاحة اللسان، فيكون نعم المعين لموسى في أعماله. ونعم الشريك في الأمر والرسالة.

وقوله تعالى على لسان موسى:﴿**كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**﴾(طه:33-34). في هذين الآيتين تعليل لسؤاله الذي سأله لنفسه ولأخيه، وتسهيل لأداء الدعوة، بتوفر آلاتها ووجود العون عليها(92). وجملة "**إنك كنت بنا بصيرا**"(طه:35). تعليل لسؤاله شرح صدره وما أتى بعده. وقد سأل اللهَ ذلك لأن موسى وأخاه كانا في أمسّ الحاجة إليه (93). وقد استجاب الله لدعاء نبيه.

***استجابة الله لدعاء نبيه:** قال الله تعالى:﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾(طه:36). فمقول القول هو خبر وإعلان من الله أنه تقبل دعاء نبيه موسى. والقصد منه طمأنة موسى عليه السلام، ووعد منه سبحانه بالإجابة. وتصديق لموسى فيما توسّمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه(94). ومن المبادئ التي يقوم عليها الحوار

التداولي، أن يتسم الطرفان بالصّدقية والقصدية. وذلك ما لمسناه في هذا الحوار بين الله سبحانه وكليمه موسى عليه السلام. وقد استجاب الله لدعاء نبيه موسى، وأزال عنه عقدة لسانه، ولذلك لم يُحكَ فيما بعد أن هارون هو من قام بمجادلة فرعون (95)، بل كان الجدال بين فرعون وموسى فقط. بعد هذا العرض والتحليل لما كان بين الله سبحانه وتعالى – من حوار قاصد وهادف وصادق- يجدر بنا أن نتطرقإلى الأبعاد والمقاصد التداولية المستفادة من هذا الحوار.

***أبعاد الحواروقاصده التداولية:**

- يعلمنا حوار الله مع موسى عليه السلام احترام قدسية المكان، سيّما أماكن العبادة، والعلم، ولذلك تدعى بالحرمات. كما يدعونا هذا الحوار إلى تعظيم شعائر الله، والإقرار والإيمان بوحدانيته سبحانه وتعالى، التقرب إليه بالصلاة التي هي العمود الفقري للعبادة . ويدعونا إلى الإيمان بالساعة أيضا، والاستعداد لها.

ويتضح أن الحوار مع موسى- عليه السلام- كان القصد منه تثبيت قلبه ودفع الشك عنه، وإقداره على تحمل أعباء الرسالة، وتنبيهه إلى استغلال فرص الذكر في مقامات القداسة والطهر ومقامات التشريف، وتزويده بالعلم لمواجهة الصعوبات وتحمل المسؤوليات وإنجاز المهمات وفك عقد الحياة والتوفيق في الأعمال. وفصاحة اللسان شرط ضروري –في هذا الاستعداد- في الإفادة وحسن البيان، وهو الطريق إلى الفهم والإفهام، وآلة للذّكر والتّذكير بالله، مع حضور النية الخالصة، وهي شرط استجابة الدعاء، وتحقيق وعد الله للمؤمنين، فينصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم المتربصين.

وهكذا فإن الحوار في القرآن الكريم حوار ببعدين؛ مادي وروحي، شاهدي وغيبي، واقعي ومثالي، يربط الإنسان بخالقه. وغايته الأولى ومقصده الأوحد هو الدعوة إلى عبادة الله، والإصلاح في الأرض، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتذكير بيوم البعث والنشور.

ويبقى الحوار بكل أشكاله ومستوياته مسألة حضارية غاية في الأهمية، ووسيلة مثلى لتحقيق التفاهم وحل الخلافات وتبادل المنافع بين الناس، كما يبقى الحوار سلوكا راقيا خادما لتطلعات الإنسانية في الحاضر والمستقبل.

***الهوامش والإحالات:**

*القــرآن الكـــــــــريم.

1 – ينظر: أسعد السحمراني، الحوار في الإسلام، آدابه وقواعده، دار النفائس، ط1 2012م، بيروت- لبنان،ص 28 - 29 .

2 –ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع، تح عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م، مادة "ح و ر"، ص217.

3 –الأزهري -تهذيب اللغة- مادة (ح ا ر) ج2، ، مصر، ص181. دط 1964م.

4 –أسعد السحمراني، المرجع السابق، ص 29-30.

5 –ينظر محمد راشد ديماس –فنون الحوار والإقناع- دار ابن حزم، ط1 1999م، ص11.

6 –ينظر:محمد نظيف –الحوار وخصائص التفاعل التواصلي- إفريقيا الشرق، دط، 2010م، المغرب، ص16.

7 –العياشي أدراوي–الحوار الإختلافي أو التناظر الكلامي-مساهمة في إعادة بناء أصول التخاطب، أفريقيا الشرق، دط، 2012م. ص5.

8 –زياد خليل عبد المجيد –الحوار والمناظرة في القرآن- دار المنار للطباعة والنشر، دط، دت، بيروت، ص135.

9 –عبد الستار الهيتي –الحوار:الذات والآخر- كتاب الأمة، العدد99، الحوار:الذات..والآخر،ط1 2004 قطر، ص99.

10 –عبد السلام بنعبد العالي –الفلسفة أداة للحوار-دار توبقال للنشر، ط1، 2011م، الدار البيضاء، المغرب، ص31.

11 –مريم أيت أحمد، جدلية الحوار –قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر- مطبعة النجاح، ط1،2011م،الدار البيضاء-المغرب-، ص129.

12 –جاك لوفرا –الحوار- تر، الهدراتي نجية، السعيد الركراكي. المطبعة:force equipement. ط1،2012.الدار البيضاء، المغرب. ص9.

13 –المرجع نفسه، ص200.

14 –أحمد محمد الشرقاوي –الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، 1428هـ، ص47.

15 –ينظر، المرجع نفسه، ص54.

16 –المرجع نفسه ص52.

17 –ينظر:الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج16، ص185.

18 –ينظر: المرجع نفسه، ص196.

19 –ينظر: جيوفري ليتش، مبادئ التداولية، أفريقيا الشرق، 2012 م،الدار البيضاء- المغرب ص141.

20 –ينظر: الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج16، ص199.

21 –ينظر: المرجع نفسه، ص204.

22 –ينظر:المرجع نفسه، ص205.

23 –ينظر، المرجع نفسه، ص206.

24 –ينظر: المرجع نفسه، ص207.

25 –ينظر: المرجع نفسه، ص209.

26 –ينظر: المرجع نفسه، ج16، ص210.

27 –ينظر: المرجع نفسه، ص211.

28 –ينظر: المرجع نفسه، ص212.

29 –ينظر:المرجع نفسه، ص213.

30 –ينظر: المرجع نفسه، ص214.

31 –ينظر: المرجع نفسه، ص214.

32 –ينظر: المرجع نفسه، ص214.